رويّ الكاف

الفرقد ابنك

قال لابن عبد الوهاب وقد جلس ابنه إلى جانب المصباح:

[البسيط]

أَمَـا تَـرَى مَـا أَرَاهُ أَيُّـهَـا الـمَـلِـكُ
كَـأَنَّـنَـا فِـي سَـمَـاءٍ مَـا لَـهَـا حُـبُـكُ(١)
أَلْـفَـرْقَـدُ ٱبْـنُـكَ وَالْـمِـصْـبَـاحُ صَـاحِـبُـهُ
وَأَنْـتَ بَـدْرُ الـدُّجَـى وَالْـمَـجْـلِسُ الْـفَـلَـكُ(٢)

يا من لا شبيه له

يمدح عبد اللَّه بن يحيى البحتري:

[البسيط]

بَـكَـيْـتُ يَـا رَبْـعُ حَـتَّـى كِـدْتُ أُبْـكِـيـكَـا
وَجُـدْتُ بِـي وَبِـدَمْـعِـي فِـي مَـغَـانِـيـكَـا(٣)

---

(١) الحبك: طرائق النجوم في السماء. يسأل الشاعر ممدوحه عن إحساسه وما يراه، فقد رأى الملك يسمو قدراً حتى تبوّأ السماء عرشاً له، مع أنه لا طرائق له كما للسماء؛ فالسماء كواكب ونجوم وحاشيته بشر لا يرتقون إلى النجوم.

(٢) الفرقد: أحد نجوم السماء. البدر: القمر. الدجى: ظلمة الليل. يشبه الشاعر ابن ممدوحه أنه فرقد إلى جانبه المصباح. ويشبه ممدوحه بالقمر في جماله وجلاله وضيائه وأنسه، فإذا بوجهه قد انكشفت عنه ظلماء عتمة الليل، فبدا مشعاً، إنه محاط بكوكبة من الحاشية يزدان بهم مجلسه.

(٣) المغاني، الواحد مغنى: المنازل المسكونة بأهلها. يبدأ الشاعر قصيدته المدحيَّة بالوقوف على الأطلال، فيخاطب الربع حيث كانت حبيبته، أما الآن فقد خلت تلك المغاني من ساكنيها، فبدت قفراء لا حياة فيها، ممَّا آلم الشاعر، فإذا به يبكي متألّماً لذكرى حبيبته.

فَعِمْ صَبَاحاً لَقَدْ هَيَّجْتَ لِي شَجَناً
وَٱرْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا[١]
بِأَيِّ حُكْمِ زَمَانٍ صِرْتَ مُتَّخِذاً
رِئْمَ الْفَلَا بَدَلاً مِنْ رِئْمِ أَهْلِيكَا[٢]
أَيَّامَ فِيكَ شُمُوسٌ مَا ٱنْبَعَثْنَ لَنَا
إِلَّا ٱبْتَعَثْنَ دَماً بِاللَّحْظِ مَسْفُوكَا[٣]
وَالْعَيْشُ أَخْضَرُ وَالأَطْلَالُ مُشْرِقَةٌ
كَأَنَّ نُورَ عُبَيْدِ ٱللَّهِ يَعْلُوكَا[٤]
نَجَا ٱمْرُؤٌ يَا ٱبْنَ يَحْيَى كُنْتَ بُغْيَتَهُ
وَخَابَ رَكْبُ رِكَابٍ لَمْ يَؤُمُّوكَا[٥]

---

(١) عم صباحاً: أي أنعم. يتمنّى الشاعر لتلك الديار أن تعيش بنعمة، فقد هيّج أشجانه وحرّك لواعج قلبه، فقد تذكر أيام عزّ تلك الديار التي كانت زاخمة تزخر بالحياة، وحبيبته تحيي فيه الأمل، ويطلب منه أن يردّ تحيّته ليُحسّ بالمشاركة الوجدانية بينهما.

(٢) و (٣) يسأل الشاعر تلك المغاني ما الذي جدّ وغيّر الأحوال، وما هي الظروف التي حملته على تبديل الصورة المعهودة لديه، لقد اعتاد أن يرى حبيبته غزالاً ظريف المظهر، أنيقاً، لطيفاً، لقد رحلت وتركت قلباً يتألم، فقد حلّ مكانها رئم حقيقي يرعى في جنبات الفلا المقفر. إنها أيام كانت العذارى فيها تبعث نشاطاً وحيوية؛ ضحكاً، لهواً، غناءً، أسراراً، مزاحاً، نظرات تودي بالعاشق إلى الهلاك، فيسفك دمه مع دموعه.

(٤) خضرة العيش: الغنى المتمثل بالكلأ والماء. يتخلّص الشاعر إلى مدح ممدوحه فينتقل من وصف جمال الحياة التي تسير على هيّنتها، والمقادير تجري بحسب أهواء ذلك المكان، فالماء والكلأ كثير، والحياة لا يُكدّرها مكدر؛ فالحياة كانت تبدو كأن نوراً مشرقاً لطيفاً يرعى ذلك المكان الذي يُشبه نور عبيد اللّه.

(٥) البغية: الطلب. خاب: خسر وفشل. الركب، الواحد راكب. الركاب: النياق. يؤموكا: يقصدوكا. يُخاطب الشاعر ممدوحه إنه مقصد خير وغنى، فمن قصدك فقد وقع على كنز ومن لم تكن بغيته خاب وخسر وعاد خالي الوفاض بلا درهم أو دينار.

أَحْيَيْتَ لِلشُّعَرَاءِ الشِّعْرَ فَامْتَدَحُوا
جَمِيعَ مَنْ مَدَحُوهُ بِالَّذِي فِيكَا[١]
وَعَلَّمُوا النَّاسَ مِنْكَ الْمَجْدَ وَٱقْتَدَرُوا
عَلَى دَقِيقِ الْمَعَانِي مِنْ مَعَانِيكَا[٢]
فَكُنْ كَمَا شِئْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ
وَكَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلْقٌ يُدَانِيكَا[٣]
شُكْرُ الْعُفَاةِ لِمَا أَوْلَيْتَ أَوْجَدَنِي
إِلَى نَدَاكَ طَرِيقَ الْعُرْفِ مَسْلُوكَا[٤]
وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِي الآفَاقِ أَوْهَمَنِي
أَنِّي بِقِلَّةِ مَا أَثْنَيْتُ أَهْجُوكَا[٥]
كَفَى بِأَنَّكَ مِنْ قَحْطَانَ فِي شَرَفٍ
وَإِنْ فَخَرْتَ فَكُلٌّ مِنْ مَوَالِيكَا[٦]

---

(١) و (٢) لقد تمثل في الممدوح غايات مكارم الأخلاق؛ جود، أخلاق حميدة، حلم، شجاعة، صبر على المكاره، إيواء المستصرخين طالبي الحماية؛ إنها مثل استنشق الشعراء ريحها من أريج أخلاق الممدوح. فإذا بهم يصبّونها في قصائدهم يمدحون بها سواه من الممدوحين، فإذا بهم يتخذونها ديدنهم.

(٣) فيستقون من أخلاق الممدوح أخلاقهم، ويتخذونه القُدوة الصالحة فيقلّدونه حتى في أدقّ تفاصيل تلك المعاني المقتبسة من سلوكياته.

(٤) العفاة، الواحدة عافٍ: طالب المعروف. أوليت: أعطيت. الندى: الكرم. العُرف: المعروف من كلّ خير. يمدح الشاعر ممدوحه بالجود، لذا فذوو الحاجات يقصدونه آملين رفداً بمستوى كرم عبيد اللّه، وهذا ما دفع الشاعر إلى أن يتوجّه إليه آملاً أن يُرزق من عطائه المشهور من الناس، لذا سلك الشاعر الدرب المؤدية إلى رحابه، والرجاء يملأه.

(٥) و (٦) الآفاق، الواحد أفق: الأنحاء. في جعبة الشاعر من الشعر الكثير، ولكن التقصير في حق ممدوحه وارد لكثرة المعاني التي اجتمعت لدى عبيد اللّه بحيث جعلت الشاعر كأنه يهجوه رغم ما أولاه من صفات حميدة. وما يكفي الممدوح أنه قحطاني يتزعّم قبيلته؛ وهذا فخر بحدّ ذاته إلى القبيلة أن تحتمي به وتنضوي تحت لوائه، فكلّ القحطانيين عبيده يأمر فيُطاع، أمره نافذ نفاذ القضاء.

وَلَـوْ نَـقَـصْـتُ كـمَـا قَـدْ زِدْتَ مِـنْ كَـرَمٍ
عَـلَـى الْـوَرَى لَـرَأَوْنِـي مِـثْـلَ شَـانِـيـكَـا[١]
لَـبَّـيْ نَـدَاكَ لَـقَـدْ نَـادَى فـأَسْـمَـعَـنِـي
يَـفْـدِيـكَ مِـنْ رَجُـلٍ صَـحْـبـي وَأَفْـدِيـكَـا[٢]
مَـا زِلْـتَ تُـتْـبِـعُ مَـا تُـولِـي يَـداً بِـيَـدٍ
حَـتَّـى ظَـنَـنْـتُ حَـيَـاتِـي مِـنْ أيَـادِيـكَـا[٣]
فَـإِنْ تَـقُـلْ هَـا فَـعَـادَاتٌ عُـرِفْـتَ بـهَـا
أَوْ لَا فَـإِنَّـكَ لا يَـسْـخُـو بِـهَـا فُـوكَـا[٤]

تحاسدت البلدان!

ورد كتاب من ابن رائق على بدر بإضافة الساحل إلى عمله، فقال أبو الطيب:
[الطويل]

تُـهَـنَّـا بِـصُـورٍ أمْ نُـهَـنِّـئُـهَـا بِـكَـا
وَقَـلَّ الَّـذِي صُـورٌ وَأَنْـتَ لَـهُ لَـكَـا[٥]

---

(١) الورى: الناس. الشاني: العدوّ الكاره، يُقدم الشاعر اعتذاره، ففي حال تقصيره في المدح، فكأنه يهجو ممدوحه، وهذا ما يحمل على اتّهامه بأنه يكرهه ناسياً كرمه الفيّاض.

(٢) لبّي، بلفظ المثنى يرد التكثير به، إنها تلبية نداء الواجب، فواجب الشعر أن يشيد بكرم ممدوحه، فالناس يتغنّوْن بكرمه، فلا بدّ من إعطائه حقه في هذا المال، والشاعر يدعو له أن يفديه هو وأصحابه بأنفسهم لدفع البلاء عنه.

(٣) تُولي: تُعطي. اليد: كناية عن النعمة. يُخاطب الشاعر ممدوحه؛ إنه لا ينقطع رفده، يتوالى بانتظام ولا ينحسر، فينقده عطاءه نقداً، ولذا فقد ظنّ أن حياته هبة منحه إيّاها بنفسه.

(٤) يسخو: يتكرّم. ها: بمعنى خذ. لقد اعتاد الممدوح على قول خذ بالإيجاب فلم يكن من طبعه البخل، لذا فلم يتفوّه بكلمة لا، فليست هذه الكلمة من مفرداته المألوفة، فلا يسخو لسانه بها.

(٥) صور: بلد ساحلي من بلاد الشام. يُخاطب الشاعر ممدوحه ويبارك له الولاية الجديدة، ويسأل الشاعر ممدوحه عن المستفيد بهذا الشرف، هل المدينة وأهلها =